النظرية اللغوية عند فِردينان دي سوسير

د. سعد العبدالله الصويان

كلية الآداب - جامعة الملك سعود

رفع
المسهم

رفع
المسهم

توطئة

يؤكد سوسير في نظريته اللغوية على عدم الخلط بين قدرة الإنسان العضلية على الكلام وبين الملكة الذهنية التي يمتلكها لتشييد نسق لغوي. الخاصية الإنسانية التي يتفرد بها البشر ليست الكلام المنطوق وإنما ما يقف وراء ذلك من ملكة لغوية تمكنهم من استخدام الرموز وتشييد نسق لغوي. لكن تحقيق الملكة اللغوية يستلزم وجود المجتمع الذي يتعارف أبناؤه على مجموعة من القواعد التي تمكنهم من ممارسة هذه الملكة. وهذه في أساسها مسألة تواضعية لا تخضع للمنطق بقدر ما تخضع للعرف والاصطلاح. اعتباطية اللغة تجعل من النسق اللغوي حقيقة اجتماعية يصعب تصور وجودها دون وجود المجتمع. لذا نقول بأن الإشارة اللغوية تستمد معناها من هذه القواعد المتعارف عليها وليس من مادتها أو أي قيمة كامنة فيها. مادة الأصوات الحادثة من جراء التلفظ بالكلمات ليست وحدات لغوية لأن الوحدة اللغوية هي في حقيقتها شكل لا مادة وهويتها تتحدد من العلاقات التي بها تتمايز عن غيرها من الوحدات. الفروقات المميزة، وليست مادة الصوت، هي التي يعول عليها في تحديد هوية الإشارة اللغوية وفرزها عن غيرها من الإشارات في نفس النسق. الإشارات اللغوية ليست عناصر مستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض بل هي مرتبطة بشبكة من العلاقات المتبادلة والتي من خلالها تتحدد قيمة كل منها.

تواضعية اللغة

ليست الكلمات مجرد تسميات نطلقها على أشياء مستقلة بوجودها ومفاهيم قائمة بذاتها وجدت في الطبيعة أصلاً قبل وجود اللغة والإنسان (Saussure 1966: 16-17, 65). تعد هذه الحقيقة التي توصل إليها عالم اللغة السويسري مونغان فِردينان دي سوسير Mongin Ferdinand de Saussure (1857-1913) خروجاً عن المسلمات العلمية السائدة في أوربا حتى ذلك الحين. كان علماء اللغة الغربيون آنذاك يرون أن هناك نوعاً من التلازم المنطقي والوشائج الطبيعية بين الدال والمدلول وأن وظيفة اللغة تنحصر في إطلاق الأسماء على الأشياء nomenclaturism. لو عدنا إلى محاورة أفلاطون المعنونة Cratylus لوجدنا أن أفلاطون كان ينادي بفكرة أن وجود اللغة سبق وجود الإنسان وأن فهم اللغة فهماً حقيقياً يقتضي فهم علاقة الاسم بالمسمى لأن الاسم يعبر عن جوهر المسمى ويختزل كنهه الحقيقي. في هذه المحاورة يدور النقاش حول كائن أسطوري يطلق عليه أفلاطون لقب "موجد الأسماء" وإليه أصلاً تؤول مهمة ابتداع اللغة. وقد راعى هذا الكائن الأسطوري في مهمته أن تتناسب الأسماء مع مسمياتها بشكل صائب يجعل الكلمات توحي بما تشير إليه من أشياء. إلا أنه مع مرور الزمن وخلال تاريخ الإنسان الطويل على هذه الأرض أدى تكرار استخدام الكلمات إلى ابتذالها والتهاون في شأنها، ومن ثم إلى فساد اللغة بحيث لم يعد بمقدور السامع أو المتحدث أن يتلمس العلاقة الطبيعية بين الشيء واسمه ولا أن يراعيها في استخدام الأسماء وإطلاقها على الموجودات. هذه النظرية التي قدمها أفلاطون وتشبث بها فلاسفة اللغة من بعده لا تفترض فقط أن

الأشياء لها وجود مستقل عن أسمائها وسابق له، بل تفترض أيضاً أن هناك علاقة تبادلية surrogationalism بين الاسم والمسمى بحيث يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر ويقوم مقامه لما بين الاثنين من تلازم منطقي وعلاقة طبيعية. لذا فإن الكلمات تكتسب معانيها بالنسبة لنا من الموجودات التي تشير لها وتحل محلها في العالم الخارجي (Harris 1988: 7-17).

ومما يؤخذ على هذه النظرة التقليدية أنها تفترض أن اللغة ليست إلا كلمات تسمى بها الأشياء في العالم الخارجي. لكن هناك الحروف والأدوات والقواعد النحوية والصوتية، وقس على ذلك. والأهم من ذلك أن هذه النظرة التقليدية، كما يرى سوسير، تؤدي إلى عزل الكلمات عن النسق اللغوي الذي تنتمي إليه وإلى عزل المتكلم عن الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها، فهي تحدد دلالة الإشارة اللغوية لا بالرجوع إلى داخل النسق اللغوي نفسه وإنما تحدده من خارج النسق، أي ليس بالنظر إلى علاقة الإشارة اللغوية بغيرها من الإشارات التي تشكل معها نسقا واحدا وإنما من علاقتها بأشياء لها وجودها المستقل خارج اللغة (Harris 1988: 17; Holdcroft 1991: 12).

خذ مثلاً مفهوم "الإنسان" الذي نعبر عنه في العربية بكلمة "إنسان" وفي الإنجليزية بكلمة man وفي الفرنسية بكلمة l'homme، وقس على ذلك بقية اللغات. قد يوحي هذا بأن الكلمات أسماء تطلق على مفاهيم مستقلة عنها قائمة بذاتها وسابقة لها في الوجود؛ وأن هذه المفاهيم مستقرة ثابتة تشترك فيها كل الشعوب والأمم عبر الزمان والمكان مهما اختلفت فيما بينها على الصعيد اللغوي. لو كان هذا صحيحاً لما وجدنا عنتاً في تعلم

اللغات الأجنبية ولما كابدنا في الترجمة من لغة إلى أخرى، ولما اقتضى منا ذلك أكثر من استبدال كلمة عربية بمقابلها الأجنبي. إلا أن هناك من الأمثلة ما يفوق الحصر ويستعصي على العد وكلها تبين لنا أن المفاهيم تتمايز بتمايز المجتمعات وتتباين بتباين اللغات. مثال ذلك ما ذكره المرحوم عباس محمود العقاد في كتابه **أشتات مجتمعات** عن الفوارق بين مفهوم كلمة "العيد" في العربية ومفهومها في اللغات الأوربية. الكلمة العربية تدل على عودة العيد كل سنة وتكرار حدوثه في نفس التاريخ. أما في اللغات الأوربية فإنها تفيد معنى الاحتفالية والوليمة ووفرة الطعام أو التوقف عن العمل أو الاحتفال الديني (العقاد د. ت: ٩٩).

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الحقول الدلالية في اللغة الواحدة تتسع وتضيق بمرور الزمن وتتبدل بتبدل الأحوال. مثلاً كلمة "خف" كانت تطلق أساساً على خف البعير ثم توسعت الدائرة الدلالية لهذه الكلمة لتشمل الخف الذي يلبسه الإنسان كما في قولنا "المسح على الخفين". و"الريشة" كانت تطلق أساساً على ريشة الطير ثم استعيرت للدلالة على الأداة التي تتخذ من الريش لتستخدم قديما في الكتابة والآن استبدلت ريشة الطير بقلم الحبر وتغير بذلك مدلول الكلمة لكن الكلمة لم تتغير. و"الخاتم" سمي كذلك أصلاً لأن اسم صاحبه كان ينقش عليه ليستخدمه في ختم الرسائل ومع أنه فقد هذه الوظيفة في زمننا هذا إلا أن الاسم لا يزال باقياً (عبد التواب ١٩٨١: ١١٢؛ ظاظا ١٩٧٦: ٥٣-٥٤). ويقول محمد المبارك "إن تبدل العادات خلال العصور التاريخية قد يؤدي إلى تغير الشيء المسمى مع بقاء الكلمة الدالة عليه وبذلك يكون مدلول الكلمة نفسه قد

تغير ضمناً ولو في شكله. فمن ذلك أن من يتزوج من العرب كان يخرج عن بيت أبيه ويبني لنفسه خباء مستقلاً ولذلك قالوا بنى بزوجته أي بنى بيتاً معها وكان المهر المستعمل إبلاً أو غنماً تساق فقالوا السياق بمعنى المهر وساق لها وكانوا إذا باعوا شيئاً صفق البائع على يد المشتري فسموا البيع صفقة وبقي اللفظ وذهبت عادة الصفق." (المبارك ١٩٧٠: ٢١٤-٢١٥). ومثلما يتغير المدلول ويبقى اللفظ ثابتاً كذلك قد يتغير اللفظ ويبقى المدلول واحداً كأن نطلق على امرأة الرجل "زوجة" و"حليلة" و"قرينة" و"حرم".

من الأمثلة السابقة يتبين لنا أننا لو أخذنا بمبدأ أن اللغة مجرد كلمات نطلقها على مفاهيم قائمة بذاتها فإنه لا بد لنا أن نفترض وجود عدد من المفاهيم المتباينة لكل كلمة من الكلمات التي أوردناها أعلاه وأن الكلمة أطلقت في البداية على هذا المفهوم ثم في مرحلة لاحقة على ذاك المفهوم وهكذا بالتدرج. لكن ما حدث في الواقع هو أن المفهوم الذي نطلق عليه الكلمة أساساً كان هو ذاته في حالة تحول مستمر عبر عصور التاريخ. ولو كانت هناك علاقة طبيعية أو منطقية بين الاسم والمسمى لأدى تحول المفهوم إلى تغير اللفظة التي تدل على ذلك المفهوم أو العكس. بل لو كان وجود الأشياء والمفاهيم سابقاً لوجود اللغة ومستقلاً عنها وكانت الكلمات مجرد أسماء تطلق عليها لما حدث تغير في المفاهيم ولبقيت مستقرة على حالها رغم تطور اللغة وتغيرها عبر الزمن ورغم ما يحصل من تبدل في نطق الكلمات أو تحول عنها إلى غيرها.

تصنيف الموجودات وتسميتها

لا تتوقف اعتباطية اللغة عند حدود علاقة الدال بالمدلول وإطلاق الأسماء على الموجودات، بل إنها تتعدى ذلك إلى تصنيف هذه الموجودات. يعتقد عامة الناس أن الواقع يمكن التعرف عليه وإدراكه حسياً من الجميع بنفس الطريقة وعلى نفس الشاكلة. إلا أن الدراسات الحديثة في علم النفس الإدراكي تشير إلى أن معرفتنا بالواقع وإحساسنا بالأشياء المحيطة بنا يتم تركيبه وتأليفه عن طريق عمليات الإدراك والتعرف على البيئة والمحيط الخارجي وما فيه من أشياء، وهي عمليات في غاية التعقيد. ولقد بينت الدراسات المقارنة أن البشر يدركون العالم المادي من حولهم ويحسون بما فيه بكيفيات ووسائل تتباين من مجتمع لآخر وأن ما نعتقد أنه الواقع هو في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون مركباً اجتماعياً social construct.

يتم استقبال المعرفة وتخزينها ومعالجتها في الذهن؛ وذلك كله يعتمد في الأساس على العمليات الكهروكيميائية التي تحدث في الدماغ. ومعرفتنا بالشيء ليست نسخة طبق الأصل يلتقطها المخ لذلك الشيء. الطريق من المنبه الحسي إلى المخ طريق متعرج تتخلله الكثير من نقاط العبور. لذا فإن المنبه الحسي خلال مروره من هذا الطريق تعتوره الكثير من التحولات والتغيرات قبل أن يصل إلى المخ ويسجل هناك على شكل مدرك percept. الصوت مثلاً لا بد أن يمر عبر الهواء على شكل ذبذبات قبل أن يصل إلى حاسة السمع التي تحوله بدورها إلى نبضات تنتقل عبر الأعصاب إلى المخ وهناك تتم معالجته وتحويله إلى مدرك (Spradley 1972: 8-9).

ولو اقتصرت العمليات الذهنية فقط على تكوين المدركات الحسية لوقعنا أسرى مستعبدين أمام خصوصية كل شيء نحس به أو حدث يمر بنا

المسهم

ولأصبح التعامل مع الأشياء والأحداث كلاً منها على حدة عبئاً ثقيلاً لا يتحمله العقل الإنساني ولا يقدر عليه. حواسنا يغمرها دائما سيل لا ينقطع من المنبهات الخارجية والمثيرات المتنوعة. إلا أن هذا السيل العرم من المدركات الحسية يختزل على شكل مفاهيم. كل مدرك حسي هو في واقع الأمر مدرك فريد متميز. لكننا نلجأ إلى اختزال المدركات التي تشترك في بعض السمات ونضمها بعضها إلى بعض، متجاهلين بذلك أوجه الاختلاف فيما بينها، لنؤلف منها مفهوماً واحداً concept مثل مفهوم "شجرة" أو "زهرة" أو "بيت" أو "كرسي"، الخ. المدركات، إذاً، لا تعدو أن تكون تصورات ذهنية للمنبهات الحسية التي ترد إلى الذهن من العالم الخارجي. ومن المدركات يتم تجريد المفاهيم. ولو لم يلجأ العقل الإنساني إلى هذه العمليات التجريدية والتعميمات لتحولت الحياة إلى فوضى لا تطاق ولأصبح من المستحيل التعامل مع الأحداث والأشياء على أساس أن كل واحد منها يمثل حالة فريدة وظاهرة مستقلة.

الناس عادة لا يلتفتون إلى كل الفروق الدقيقة وجميع السمات التي تميز بين كل ما يتعرضون له في حياتهم اليومية من منبهات ومثيرات تفوق الحصر. وهم لا يستجيبون لكل واحد من هذه المنبهات والمثيرات، برغم ما بينها من فوارق موضوعية، على أنه حدث جديد ومختلف. بل إننا نتعمد تجاهل الكثير من الفروق المادية والمميزات الحسية التي تجعل من كل منبه حدثاً فريداً، رغم وعينا وإدراكنا لهذه الفروق والمميزات. ما يحدث في واقع الأمر أننا نقوم بتصنيف الأشياء التي تبدو لنا متشابهة ونضمها بعضها إلى بعض ونضعها في فصيلة واحدة ونستخلص خصائصها المشتركة لنخلق

المسيرهم

منها مفهوماً مجرداً نعطيه اسما تنضوي تحته كل هذه المدركات الحسية بصرف النظر عما يميزها بعضها عن بعض من فوارق حسية. عن طريق التصنيف والتسميات يفرض الإنسان قدراً من الانتظام والانضباط على عالم يعج بالمنبهات الحسية. نطلق اللفظ الواحد على كل أنواع الصنف وعيناته، أي على جميع التحقيقات العينية لهذا الصنف ونسمى كل واحد منها حيثما وجدت على تعددها وتنوعها بهذا الاسم دون تخصيص. أي أننا نظرنا إلى كل هذه التحقيقات العينية الكثيرة على اختلاف صفاتها وتباين أشكالها وألوانها وروائحها وأحجامها وهيئاتها وجردنا منها السمات الأساسية المشتركة بينها ووضعناها في صنف واحد وأطلقنا على هذا الصنف اسماً يدل عليه. ولقد تحدث الأستاذ المبارك عن هذه المسألة الهامة حديثاً مستفيضاً شاملاً جاء فيه:

إن تسمية الأشياء ووضع الألفاظ للدلالة عليها في كل لغة من اللغات نوع من تصنيف الموجودات المادية منها والمعنوية فيدخل تحت لفظ الشجرة والدار والنبات والحجر والمشي والقطع والصوت وسائر الألفاظ الدالة على شيء مادي أو فعل أفراد كثيرة لا تحصى وليست هي متماثلة متطابقة وكذلك يدخل تحت كل لفظ من الحب والبغض والكرم والبخل والذكاء والبلادة والشرف والخسة والفرح والحزن والغضب والنشوة حالات كثيرة جدا يختلف بعضها عن بعض ولكن اللغة جمعتها تحت عنوان واحد وجعلتها نوعا يسمى باسم واحد. فكل لغة من اللغات صنفت أفراد الكون وأجزاء الوجود في مجموعات أو أنواع وجعلت لكل مجموعة أو نوع اسماً واحداً فكل ورقة من أوراق الشجر التي وجدت أو ستوجد مما لا يمكن عده ولا

رفع المسهم

يتصور إحصاؤه على اختلاف أشكالها وذواتها تسمى ورقة.

ومن هنا كان بين اللغات شيء من الاختلاف بين الألفاظ فلا يقابل كل لفظ نظيره من اللغة الأخرى مقابلة تامة دائمًا لاختلاف مفهوم الشعوب للوجود واختلافها في تصنيفه فقد تجمع لغة من اللغات في نوع واحد وتحت اسم واحد ما تفرقه لغة أخرى في نوعين أو أكثر وتسميه بأكثر من اسم واحد فالعمة والخالة في العربية يقابلها في الفرنسية لفظ واحد هو tante وكلمة رسالة في العربية يقابلها ألفاظ مختلفة في الفرنسية وهي lettre ويراد بها الرسالة التي تكتب إلى قريب أو صديق مثلاً و épitre ويقصد بها الرسالة التي تؤلف في موضوع معين و message وهي الرسالة التي يبعث بها ملك أو رئيس دولة إلى مثله في موضوع مع رسول يبلغها و mission وهي رسالة الأنبياء ودعاة الإصلاح، والخسارة والفقدان أو الضياع يقابلها في الفرنسية لفظ واحد هو perte والتراب والأرض يقابلها terre. (المبارك ١٩٧٠: ٢٠٠-٢٠٢).

إن الكلمة حين يجرى بها لسان المتكلم أو قلم الكاتب إنما يقصد بها غالباً شيئاً بعينه ولكن الكلمة اللغوية بذاتها لا تدل على الشيء المقصود نفسه كما هو في الواقع أو في تصور المتكلم فإذا استخدم كلمة غرفة أو نهر أو فرح فهو يريد غرفة ذات طول معين وعرض وارتفاع ولون وأثاث وزينة، ويقصد نهراً بعينه، بمنظره وغزارة مائه وما يحيط به من قفر أو نبات أو بناء، ويعني فرحاً من نوع خاص. (المبارك ١٩٧٠: ٢٠٤-٢٠٥).

وبما أن طرق التصنيف وكذلك إطلاق الأسماء إجراءات تواضعية تماماً نجد أن الثقافات تختلف في السبل التي تنتهجها في ذلك. فهناك أشياء قد

تبدو متشابهة وتصنف في فصيلة واحدة بالنسبة لهذه الثقافة بينما في ثقافة أخرى ينظر إلى هذه الأشياء على أنها مختلفة وتوضع في تصنيفات متباينة. وأبسط مثال على ذلك أن هناك أصنافاً من المأكولات كالبندورة والشمام والبطيخ يختلف الناس حولها فيما إذا كانت من فصيلة الفواكه أو من فصيلة الخضروات. والاختلاف بين الثقافات لا ينحصر فقط في تصنيف العالم المادي بل إن الثقافات تختلف كذلك في ما تلتفت إليه من مظاهر العالم المادي وتعيره اهتمامها وتحاول تصنيفه (Spradley 1972: 9-11; Tylor 1969: 6-13). الظاهرة الواحدة قد تلتفت لها أحد الثقافات وتهتم بها بينما لا تعبأ بها ثقافة أخرى ولا تلقي لها بالاً، والثقافات المختلفة قد تنظر لنفس الظاهرة من زوايا متفاوتة. يقول المبارك في هذا الصدد:

إذا تجاوزنا البحث عن النشأة الأولى لألفاظ اللغة ونظرنا في طريقة وضع الألفاظ للمعاني الجديدة بعد أن أصبح للغة رأس مال من المفردات الدالة على المعاني وجدنا أن ذلك يكون باختيار صفة من صفات الشيء الذي يراد تسميته أو بعض أجزائه أو نواحيه أو تحديد وظيفته وعمله واشتقاق لفظ يدل عليه من اللفظ الدال على صفته أو جزئه أو ناحيته أو وظيفته وفي هذا الموضع تختلف الأمم وتتفاوت في نظرتها إلى الأشياء وفي وضعها للألفاظ الحديثة التي تطلقها على المسميات....

أما الناحية الأخرى في هذا الباب فهي طريقة التسمية أو طريقة اختيار الصفة التي بها تكون التسمية فبينما نرى الفرنسي مثلاً قد أطلق لفظ biscyclette أي ذات الدولابين على أداة الركوب المعروفة بهذا الاسم عندهم أطلق عليها العربي لفظ الدراجة فالفرنسي حللها إلى أجزائها

ونظر إلى تركيبها وإلى حالتها الساكنة ونظر العربي إلى وظيفتها وعملها وحركتها فسماها دراجة وكذلك السيارة سماها الفرنسي automobile أي المتحرك بنفسه وسماها العربي بلفظ يدل على عملها (المبارك ١٩٧٠: ٣٠٤)

إن المشكلة التي تواجهنا مثلاً في ترجمة كلمة انجليزية مثل uncle أو aunt أو cousin لا تكمن في الاختلاف بين مفردات اللغتين العربية والإنجليزية بقدر ما تكمن في الاختلاف بين الشعوب العربية والشعوب الأنجلوسكسونية في مفهوم النسب وتصنيف الأقارب. هذا ونلاحظ أن مفهوم كلمة "أخ" أو "أخت" في اللغتين العربية والإنجليزية لا يختلف باختلاف جنس المتكلم أو سنه عن الشخص المشار إليه. أما في اللغة التركية فإن المتكلم يستخدم مصطلحين مختلفين تبعاً لما إذا كان الأخ المشار إليه أكبر من المتكلم أو أصغر منه. كما نجد في اللغة الجاوية أن الكلمة المستخدمة للإشارة إلى "أخ" أو إلى "أخت" تختلف تبعاً لما إذا كان المتكلم ذكراً أو أنثى، أي تبعاً لما إذا كان شخص المتكلم وشخص المشار إليه من جنس واحد أو من جنسين مختلفين. هذا يعني أن الأخ يطلق على أخيه كلمة غير تلك التي تطلقها الأخت على أخيها وأن الأخت تطلق على أختها كلمة غير تلك التي يطلقها الأخ على أخته. ومن هنا نرى كيف أن الاحتلاف بين الشعوب العربية والتركية والجاوية والإنجليزية لا يقتصر فقط على الكلمات التي يطلقونها على الأقارب بل يتعدى ذلك إلى طريقتهم في تصنيف الأقارب ونظرتهم إلى مفهوم القرابة ودرجات القربى.

وما قلناه عن تصنيف الأقارب يمكن أن نقوله عن تصنيف الألوان، إذ إن

لكل ثقافة أو مجتمع طريقته المتميزة في تقسيم الطيف. هناك بعض الشعوب التي تدقق في تصنيف الألوان وتقسيمها إلى أعداد تفوق الحصر وتطلق على كل منها اسمه المتميز. وهناك في المقابل بعض الشعوب البدائية التي لا تعرف إلا أصنافاً قليلة من الألوان كأن تضع الألوان الداكنة على اختلاف درجاتها في فصيلة واحدة دون التمييز بينها والألوان الفاتحة في فصيلة أخرى.

ويورد Jonathan Culler المثال التالي ليبين ما بين اللغات من فروق في تصنيف الموجودات. من الواضح أن الكلمات fleuve و riviér دوال تنتمي إلى الفرنسية دون الإنجليزية. بينما river و stream تنتمي إلى الإنجليزية دون الفرنسية. لكن الأمر الذي ليس على نفس القدر من الوضوح وإن كان على قدر أكبر من الأهمية هو أن بنية النسق المفاهيمي يختلف في الإنجليزية عنه في الفرنسية. المدلول river يقابل stream ويختلف عنه فقط بالنسبة للحجم بينما fleuve يقابل riviér ليس بالضرورة لأنه أكبر منه وإنما لأنه يصب في البحر بينما riviér لا يصب في البحر. باختصار fleuve و riviér لا يشكلان مدلولين أو مفهومين في اللغة الإنجليزية. إنهما يمثلان سبيلاً آخر في مفصلة النسق المفاهيمي (Culler 1976: 19, 23-24). وحقيقة كون هاتين اللغتين (الإنجليزية والفرنسية) كل واحدة منهما تؤدي مهمتها بشكل جيد جداً مع اختلافهما في مفصلة النسق المفاهيمي وتمييز المدلولات وتصنيف العالم الحسي يشير إلى أن هذه التجزئات ليست طبيعية ولا حتمية وإنما هي تواضعية بحتة، وهذا أمر جدير بالملاحظة. لا شك أنه يلزم لكل لغة وسيلة تلجأ إليها للحديث مثلا عن المياه الجارية، أو أي موضوع آخر، إلا أن

اللغة يمكنها اللجوء إلى وسائل شتى من أجل تمييز المفاهيم وتحديد التصنيفات المناسبة في هذا الموضوع والتي قد لا تتفق مع الوسائل التي تلجأ إليها غيرها من اللغات كأن تحدد مثلا سرعة الجريان أو اتجاهه أو انحداره أو العمق أو الحجم أو الاستواء أو التعرج، وهلم جراً.

باختصار، لا توجد في هذا العالم أفكار مسبقة ومحددة قبل ظهور اللغة، ومدلولات الألفاظ ليست مفاهيم ثابته بل متغيرة حسب حالات الاستعمال وتطور اللغة. هذا يعني أن المفاهيم، أو المدلولات، ليست في حقيقتها سوى تجزءات تواضعية لعالم الحواس المتداخل المتمازج مما يعني أنها ليست وحدات مستقلة بذاتها يمكن تعريف كل واحدة منها بتحديد جوهر يختص به أو كنه يتفرد به. إن هذه المدلولات تشكل أجزاء مترابطة من نظام التصنيف المتماسك أو لنقل النسق المفاهيمي المتكامل الذي تتبناه هذه الثقافة أو تلك. فلو أردت أن أوضح لمحدثي ما أعنيه مثلاً بكلمة "رعن" فإنني مضطر أن أبين له أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين هذه الكلمة وكلمات أخرى تقاربها في المعنى مثل "حيد"، "طود"، "أكمة"، "ربوة"، "تل"، "هضبة". ولتحديد معنى كلمة "غمام" ينبغي مقارنتها بكلمات مثل "سحاب"، "غيم"، "دجن"، "رباب"، "مزن"، "نشاص". ولتحديد معنى كلمة "سيل" ينبغي مقارنتها بكلمات مثل "مطر"، "غيث"، "صيّب"، "وبل"، "ديم"، "طل"، "طش"، "رش"، "رذاذ"، "شؤبوب". ولتحديد معنى كلمة "قليب" ينبغي مقارنتها بكلمات مثل "جب"، "بئر"، "حسي"، "ركية"، "عيلم"، "رس". وقس على ذلك بقية الأمور.

بناء على ما تقدم يمكننا القول بأن وجود الفروق المادية شيء وتوظيفها

في التمييز والتصنيف شيء آخر. إدراك الفرق الحسي لا يعني شيئاً ذا بال إن لم يوظف في تأسيس فروق معنوية وتمايزات دلالية. وإذا ما طرحنا جانباً الخصائص المادية الفيزيائية البحتة وقصرنا مجال البحث على الأشياء والظواهر المحملة بالمعاني فإننا سوف نجد أن السمات المحددة لأي من هذه الأشياء والظواهر كامنة في الخصائص التمايزية التي تعطى كل منها المعنى الذي يحمله داخل النسق الرمزي الذي ينتمي إليه. وحينما نقوم بفصل ما هو وظيفي عما هو غير وظيفي من أجل اكتشاف النسق الداخلي فإن مجال اهتمامنا في هذه الحالة لن ينصرف إلى الخصائص الفردية المستقلة بل إلى الفروقات التي بها تتمايز العناصر داخل النسق وتعطي كل منها ما يحمله من معاني (Culler 1975: 5, 10-11)

المعرفة الإنسانية إذاً تبدأ بالمدركات الحسية، ومن المدركات الحسية تتكون المفاهيم. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة تحويل المفاهيم وصياغتها في لغة أو شفرة code. ووظيفة اللغة لا تقتصر فقط على تيسير سبل التفاهم بين البشر، بل إنها تفرز تصورات ذهنية وأفكاراً مركبة مؤسسة على المدركات الحسية إلا أنها تتجاوزها وتسمو عليها. وتختلف اللغات باختلاف الطرق التي ينتهجها كل مجتمع في تشكيل مادة الصوت الإنساني والتأليف فيما بين الأصوات لتصبح مفردات تسمى بها الموجودات. وهذه في أساسها مسألة تواضعية بحتة لا تخضع للمنطق بقدر ما تخضع للعرف والاصطلاح. هذا بالإضافة إلى اختلاف المجتمعات كما أوضحنا في اختيار السبل المتميزة التي يسلكها كل واحد منها في تصنيف الموجودات وتقسيمها إلى فصائل وأنواع. وهذه أيضا مسألة تواضعية يحكمها العرف والاصطلاح

وتوجهها ظروف البيئة الطبيعية التي يجد المجتمع نفسه مضطراً للتكيف معها وما ينتج عن هذا التكيف من نظم اجتماعية وموروث تاريخي وثقافي. أي أن الاختلاف اللغوي بين الأمم والشعوب لا ينحصر فقط في الأسماء والكلمات التي يطلقونها على الأشياء. يعود هذا الاختلاف أيضاً إلى تمايز المجتمعات والثقافات في رؤيتها الكلية ونظرتها العامة إلى الكون بكل ما فيه من موجودات وإلى تباين السبل التي ينتهجونها في تمييز مظاهر الطبيعة وفي تجزئة العالم المحسوس وفي تقسيم مكوناته المادية وتصنيفها في فصائل وأنواع.

الإشارة اللغوية

هذا يفضي بنا إلى الإشارة اللغوية وتعريفها عند سوسير (Saussure 1966: 65-67). الكلمة لا تربط بين شيء واسمه. إنها تربط بين مفهوم conceptوصورة صوتية sound image. ولا يقصد بالصورة الصوتية هنا مادة الصوت ذاتها كحدث فيزيائي بحت وإنما الأثر النفسي والانطباع الذي يتولد في ذهن السامع حالما تنتقل إليه الكلمة من خلال حاسة السمع (عزيز ١٩٨٨: ٨٤-٨٦). إذا ما تلفظ المتكلم بكلمة "شجرة" مثلاً فإنه مهما اختلفت طريقة النطق، أي مادة الصوت، تبقى الصورة الصوتية، أي الانطباع الذهني، واحدة عند من يتحدثون لغة المتكلم. وبالمقابل، لو أن جمهوراً من الناس يتحدثون لغات مختلفة سمعوا لفظة "شجرة" فإنه على الرغم من أن مادة الصوت واحدة إلا أن الانطباع الذهني الذي يتولد لديهم عند سماع هذه اللفظة سوف يختلف من شخص لآخر، حسب اختلاف

الخلفية اللغوية لكل منهم. أما المفهوم الذي يتحد مع الصورة الصوتية لتتكون منهما الإشارة اللغوية فإنه لا يقصد به أي شيء محسوس في العالم الخارجي وإنما يقصد به فكرة مجردة أو معنى مجرداً دون تعيين أو تخصيص. أي أن المفهوم "شجرة" لا يشير إلى هذه الشجرة في هذه الحديقة أو إلى تلك الشجرة في ذلك البستان وإنما يقصد به أي شيء وكل شيء يمكن أن ينضوي تحت هذه المفردة اللغوية.

وحينما نتحدث عن الصورة الصوتية وعن المفهوم كل على حدة فإن هذا لا يعني بتاتا إمكانية الفصل بينهما أو استقلال أي منهما عن الآخر. الإشارة اللغوية عبارة عن اتحاد لا انفكاك فيه بين الصورة الصوتية والمفهوم. إنها أشبه بصفحة من الورق وجهها الفكرة وظهرها الصوت بحيث لا أحد يستطيع تمزيق الوجه دون تمزيق الظهر في الوقت ذاته. كذلك لا أحد يستطيع فصل الصوت عن الفكر ولا فصل الفكر عن الصوت (Saussure 1966: 112-113). وعلى الرغم من العلاقة الاعتباطية بين المفهوم والصورة الصوتية التي تشير إليه إلا أنه لا يمكن أن يوجد أحدهما بدون الآخر وحضور أي منهما في الذهن أو الحواس يستدعي بالضرورة حضور الآخر لأن اللغة والفكر لا وجود لأي منهما بدون الآخر. وعلاقة الصورة الصوتية بالمفهوم هي علاقة الدال بالمدلول بحيث تكون الصورة الصوتية هو الدال والمفهوم هو المدلول. ويمكننا الاستعاضة بكلمتي الدال والمدلول بدلاً من الصورة الصوتية والمفهوم (Saussure 1966: 67).

وبما أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة تواضعية بمعنى أنه لا يوجد سبب قهري يدعو إلى أن يرتبط هذا المدلول دون سواه بذلك الدال، فإن

ذلك يعني أنه لا يوجد عنصر أساسي أو خاصية ذاتية ينبغي أن تتوافر في الشيء ليمكن اعتباره مدلولاً لذلك الدال. المدلول الذي يرتبط بالدال يمكن له أن يتخذ أي شكل وليس هناك جوهر معنوي يلزم أن يحتفظ به الشيء ليبقى المدلول الأنسب لذلك الدال. هذه الاعتباطية في العلاقة بين الدال والمدلول تؤدي إلى نتيجة واحدة مؤداها أنه إذا لم تكن هناك مدلولات كلية universals ثابتة ومستقرة ولا دوال كلية ثابتة ومستقرة فإن خاصية الاعتباطية تنسحب أيضاً على الدال والمدلول ولا تقتصر فقط على العلاقة بينهما (Culler 1967: 23). أي أن تقسيم الدفق الصوتي إلى كلمات وكذلك تقسيم المجال المادي الحسي إلى أشياء ومفاهيم لا تعدو أن تكون إجراءات اعتباطية تتم بالتواضع والاتفاق وبذلك فهي تختلف، كما رأينا، من ثقافة إلى أخرى.

بما أن الإشارة اللغوية تواضعية، بما أنها تنتج عن تقسيم الدفق الصوتي المتداخل وكذلك العالم الحسي المتمازج بطرق متميزة تتفرد بها كل لغة على حدة، فإن ذلك يعني أنه لا يمكن النظر إلى الإشارة اللغوية كما لو كانت شيئاً مستقلاً بذاته بل لا بد من النظر إليها كجزء من نسق. هذا لا يعني فقط أنه لكي تعرف معنى أحمر فلا بد لك أن تعرف معنى أخضر وأزرق الخ. بل يصح لنا أن نقول إن مدلولات الكلمات التي نطلقها على الألوان لا تعدو أن تكون محصلة نسق التمايزات التي تتبناها اللغة. حينما تقسم اللغة الطيف إلى أصناف متمايزة من الألوان وتطلق عليها أسماءها فإنها تقيم نسقاً فريداً من المدلولات، أي الكيانات التي يتحدد كل منها من واقع العلاقات القائمة بينها (Lyons 1968: 56-59). وظيفة اللغة ليست إطلاق

مسميات على مفاهيم مسبقة ومستقلة في الوجود. مهمة اللغة الحقيقية هي من جهة إقامة علاقات اعتباطية بين ما تختاره من دوال وهي من جهة أخرى إقامة علاقات اعتباطية أيضا بين ما تختاره من مدلولات. لو نظرنا إلى أي لغة من اللغات لوجدنا أنها لا تتوقف عند حد وضع مجموعة تختص بها من الدوال عن طريق مفصلة الدفق الصوتي على شكل ألفاظ مجزأة ومتمايزة. بل إن هذه اللغة بناء على ذلك تقوم في الوقت نفسه بوضع مجموعة تختص بها من المدلولات عن طريق تجزئة العالم الحسي بطريقة تواضعية إلى مفاهيم وتصنيفه في فصائل.

إن الاعتباطية في تشكيل الكلمات من جانب وفي تصنيف الموجودات من الجانب الآخر يفضي بنا إلى نتيجة هامة مؤداها أن الأشياء ليس لها وجود مستقل وأنه لا يمكن التعرف على ماهية الشيء من جوهره ولا حتى من الكلمة التي تستخدم للدلالة عليه. ترتبط ماهية الشيء بتقابله مع غيره من الأشياء. وبالمقابل فإن معنى الكلمة لا يكمن في جوهرها ولا حتى في الشيء الذي تدل عليه بل في تقابلها مع غيرها من الكلمات. الأصوات في حد ذاتها لا تعني شيئاً ولا تشكل لغة ما لم تعبر عن أفكار وتتضمن مفاهيم. ولكن لكي تعبر الأصوات عن أفكار وتحمل معاني، لا بد أن تقوم بينها علاقات بحيث تشكل في مجملها نسق مترابط من الإشارات. هذا هو لب النظرية اللغوية عند سوسير. الكلمات، مثلها مثل بقية الأشياء، ليست إلا عناصر مترابطة ضمن نسق متكامل وما يحدد معناها هو علاقتها بغيرها من عناصر النسق. العلاقات القائمة بين عناصر النسق هي التي تحدد معنى كل عنصر فيه. هذا يعني أن الكلمة ليست هي التي تحدد معنى

الشيء وكنهه وإنما الذي يحدد ذلك علاقة الشيء بغيره من الأشياء ومكانته في نظام التصنيف الذي تتبناه هذه الثقافة أو تلك. وبالمقابل، لا يكمن معنى الكلمة في الشيء أو المفهوم الذي تشير إليه بل في علاقة هذه الكلمة بغيرها من الكلمات ومكانتها في النسق اللغوي. مثال ذلك أننا لن نعرف المقصود بقولنا "أحمر" إلا إذا تعرفنا على "أخضر" و "أزرق" الخ واتضحت لنا علاقة هذه الألوان فيما بينها. كما أنه لا يمكننا أن نعرف معنى "خال" إلا إذا تبينا موقع هذا العنصر في النسق القرابي وعلاقته بالعناصر الأخرى مثل "خالة" و "عم" و "عمة" وهلم جراً.

هوية الوحدة في اللغة

إن لم تكن الكلمة عبارة عن لفظ نطلقه على شيء في الوجود، ماذا تكون إذاً؟ يولي سوسير إشكالية تحديد هوية الوحدة في اللغة اهتماماً خاصاً (Saussure 1966: 102-111). لا بد أن يكون هناك لكل كلمة أو عبارة هوية محددة نتعرف بها عليها ونستطيع بواسطتها أن نوظفها ونستعملها بالطريقة الصحيحة في التخاطب وفي تأليف الكلام. بدون أن تكون لكل كلمة أو عبارة هوية محددة ومعروفة كيف يمكننا أن نتعرف على هذه العناصر ونعرف إذا ما كنا نكرر نفس الكلمات ونعيد نفس العبارات أو أننا نقول شيئا مختلفا؟ بمعنى كيف يمكننا اعتبار لفظين أو أكثر نفس الكلمة؟ تصور أننا استطعنا حصر كل الحالات التي تم فيها التلفظ بكلمة "شجرة" منذ نشأة اللغة العربية حتى يومنا هذا من قبل الناطقين بلغة الضاد على تباين مشاربهم ولهجاتهم وعلى اختلاف أجناسهم وأعمارهم واختلافهم في البنية والتركيب الجسماني وسلامة أعضاء النطق وما شابه ذلك. لا غرو

المسيَّر هما

أن عدد حالات التلفظ هذه سوف يفوق الحصر ومع ذلك فإن مادة الصوت في كل منها إذا ما قيست مخبرياً بمقياس إلكتروني دقيق سوف تختلف، إن كثيراً أو قليلاً، عن كل الحالات الأخرى. كذلك معنى الكلمة قد يختلف من سياق لغوي إلى آخر كأن يكون المقصود "شجرة التفاح" أو "شجرة الزيتون" أو "شجرة الحياة" أو "شجرة العائلة" أو "شجرة الدر" وهلم جراً. إلا أنه على الرغم من الاختلاف في الدلالة وفي مادة الصوت تبقى الكلمة هي الكلمة. ولنا أن نتساءل: إلى أي مدى يمكن أن يختلف نطق الكلمة أو معناها من حالة إلى أخرى وتبقى مع ذلك هي الكلمة؟ ولتوضيح هذه المسألة يمكننا أن نطرحها على صعيد آخر. إلى أي مدى يمكن أن يتغير اللون الأخضر مثلاً ويبقى مع ذلك أخضر؟ الإجابة متشابهة على كلا السؤالين. يبقى اللون الأخضر أخضراً ما لم يدخل في نطاق اللون الأقرب إليه على الطيف. كذلك الكلمة "أخضر" تبقى هي هي مهما تغير نطقها ما لم تدخل في نطاق أقرب الكلمات إليها في اللفظ مثل "أخطر"، "أحضر" إلخ. لكن علينا أن نتنبه إلى أن تقسيم الطيف مسألة اعتباطية بحيث أن الحد الفاصل الذي ينتهي عنده اللون الأخضر ويبدأ اللون الذي يليه مسألة تختلف من ثقافة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر.

إن هوية أي كلمة مثل "زار" لا تكمن حقيقة في هذه الأصوات التي نسمعها حال التلفظ بالكلمة ولا في دلالتها. طريقة النطق، كما أسلفنا، تختلف من متكلم لآخر ومن حالة لأخرى. كما أن اللفظة الواحدة قد تشير إلى عدة أشياء مثل "حفظ درسه" و"حفظ عرضه" و"حفظ الأمانة"، أو كقولنا "تبنى موقفاً" و "تبنى طفلاً" وهكذا. هذا يبرهن لنا أنه لا فائدة من

محاولة تحديد هوية الكلمة بالرجوع إلى معناها أو الطريقة التي تنطق بها. هوية الكلمة لا تكمن في مادتها، بل في التمايزات التي بواسطتها نستطيع التفريق بين "زار"، "سار"، "صار" الخ.

صحيح أن اللغة تتحقق مادياً بالصوت لكنها ليست هي إياه. الإشارة اللغوية شيء مختلف عن تحقيقها الصوتي؛ فهي ليست مادة الصوت الذي تحدثه أعضاء النطق عند المتكلم أثناء الحديث. لا ينطوي الدال في صميم خصائصه الصوتية على أية إحالة إلى المدلول. الصوت ليس إلا مجرد أداة يستخدمها المتكلمون للتفاهم فيما بينهم وتوصيل الأفكار من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع، لكنها في حد ذاتها ليست بذات أهمية، ولنا أن نتصور أدوات ومواد أخرى لتوصيل الفكرة مثل اللمس والرؤية والشم. وهذا شبيه إلى حد ما بالشفرة التي تتحقق في الأجهزة المبرقة لكن الأجهزة ذاتها لا تشكل جزءاً من نظام الشفرة. ويرى سوسير أن لا أهمية لمادة الصوت كحدث فيزيائي. المهم هو الجانب السيكولوجي للإشارة اللغوية والذي يتمثل في المفاهيم concepts والصور الصوتية sound images والعلاقات القائمة بينها. تحديد الدال أو المدلول لا يقوم على مادته ولا على طبيعته ولا على ارتباطه بأي شيء خارجي وإنما على وجوده كجزء من نسق وعلى الفروقات التي يتمايز بها عن المكونات الأخرى للنسق الذي ينتمي إليه مادة الأصوات الحادثة من جراء التلفظ بالكلمات ليست وحدات لغوية لأن الوحدة اللغوية هي في حقيقتها شكل لا مادة وهويتها تتحدد من العلاقات التي بها تتمايز عن غيرها من الوحدات. إنها كيان ذهني مجرد لا ينبغي أن نخلط بينه وبين مادة الصوت (Holdcroft 1991: 49, 93).

اللغة نظام قائم بذاته ومكتف بنفسه وليس له أي ارتباط بأي شيء خارج عنه، وليس هو انعكاساً لأي شيء آخر كالفكر أو المحيط الخارجي وعالم المادة أو ما إلى ذلك. ولذلك فإنه من الخطأ أن نقيس اللغة بغيرها ونحاول تفسير خصائصها البنيوية أو الدلالية من خلال النظر والمقارنة مع خصائص البنى والنظم الأخرى (Holdcroft 1991: 10). الفروقات المميِزة، وليست مادة الصوت، هي التي يعول عليها في تحديد هوية الإشارة اللغوية وفرزها عن غيرها من الإشارات في نفس النسق. النسق اللغوي مجموعة من العلاقات المجردة التي تتحقق من خلال وسيط معين ومادة معينة مثل الصوت لكن ماهية هذا النسق لا تحددها طبيعة الوسيط ولا مادته ولا أي شيء آخر عدا العلاقات القائمة بين مكوناته في لحظة من اللحظات (Saussure 1966: 80). وبناء على ذلك، يرى سوسير أن الهدف الأساسي في علم اللغة ليس ما كان يقوم به اللغويون من دراسة تاريخ اللغة وتطورها، أو ما يسمى بالدراسات التتبعية أو الداياكرونية diachronic، وإنما دراسة الحالة اللغوية etat de langue في مرحلة معينة كنظام متداخل من الإشارات التي تتحدد معانيها من طبيعة العلاقات القائمة بينها في لحظة من اللحظات، وهذا ما يطلق عليه الدراسة التزامنية أو السنكرونية synchronic.

بما أن الدال والمدلول كلاهما اعتباطيان إذاً هما عبارة عن مجرد علاقات صرفة. الدال والمدلول كلاهما كيانات تمايزية أو بعبارة أخرى علاقات خالصة (Culler 1976: 23)، أي تقابلات ذهنية مجردة بين الانطباعات المسموعة (Holdcroft 1991: 36).هذا ما يعنيه سوسير في

تأكيده على أن اللغة نسق من العلاقات التمايزية وأن الإشارة اللغوية شكل form وليست مادة substance. لذلك فإن طبيعة المادة التي يتم اللجوء إليها لتحقيق هذا الشكل والتعبير عنه وتجسيده ليست بذات أهمية طالما ظلت العلاقات المجردة التي يقوم عليها متحققة (Holdcroft 1991: 37) ويوضح سوسير هذه الفكرة بالمثال التالي. انظر إلى القطار الذي يغادر من محطة باريس إلى محطة جنيف الساعة ٨:٢٥ مساء كل يوم. يتكلم الناس عن هذا القطار على أنه هو القطار ذاته كل يوم علماً بأن طاقم التشغيل والقاطرة والعربات تتغير من يوم لآخر. هذا يوضح لنا أن الأشياء المادية ليست هي التي يعول عليها في تحديد هوية القطار. ما يعول عليه هو علاقة هذا القطار بالقطارات الأخرى وتميزه عنها، أي مكانته في نسق مواصلات السكة الحديدية الذي يعتمد على اتجاهات القطارات المختلفة ومساراتها ومواعيدها. بل إنه لو تأخر القطار عن موعد مغادرته يبقى هو هو ما لم يغير اتجاهه أو يتفق موعد مغادرته مع موعد مغادرة القطار الذي يغادر قبله أو بعده. كذلك الشوارع تحافظ على أسمائها مهما حدث فيها من تغيير مادي نتيجة عمليات الرصف أو الهدم والبناء وما شابه ذلك (Saussure 1966: 108, 109).

ويقارن سوسير بين اللغة ونظام آخر من الإشارات هو الكتابة (Saussure 1966: 119-120). مثلما أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية كذلك هي العلاقة بين الحرف والصوت اللغوي الذي يرمز إليه، كأن نرمز لصوت التاء هكذا "ت" أو هكذا "t". وكل منا له طريقته الخاصة في الكتابة بحيث أن التشابه التام بين الخطوط أمر مستحيل، بل إن شكل الحرف الواحد

يختلف في كل مرة تتم كتابته من قبل الشخص نفسه. المهم في الأمر أن يبقى الحرف متميزاً ولا يختلط بما يقاربه شكلاً من الحروف. ثم إنه يمكننا الكتابة بأي لون وأي مادة وأي أداة، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقرأ خطوط بعضنا البعض ونتفاهم فيما بيننا بواسطة الكتابة.

القيمة اللغوية

حينما نتحدث عن قيمة كلمة من الكلمات فإن أول ما يتبادر إلى الذهن دلالة الكلمة، المعنى الذي ترمي إليه. وهذا بالفعل جانب من جوانب القيمة اللغوية. لكن لنا أن نسأل في هذه الحالة كيف تختلف القيمة عن الدلالة؟ إنهما متداخلتان والفرق بينهما دقيق جداً. سبق القول أن الفكرة التي تعبر عنها الإشارة اللغوية هي الجانب المقابل من تحقيقها الصوتي. هذا إذا نظرنا إلى الإشارة بمفردها وبمعزل عن النسق اللغوي وبقية عناصر اللغة. لكن الإشارة هي في الوقت نفسه نظيرة الإشارات الأخرى في اللغة وقسيمتها، لأن اللغة، كما ألمحنا، نسق متداخل من الإشارات التي تحكمها علاقات منتظمة وتتحقق معانيها من خلال ما يقوم بينها من تقابلات تمايزية بها تتحدد كيفية اختلاف مكونات النسق بعضها عن بعض (Saussure 1966: 114-119).

والقيمة عادة، سواء كانت لغوية أم غير ذلك، يحكمها مبدأ واحد ذو شقين، فهي تتحدد أولاً من خلال مقارنتها بشيء مختلف عنها، كأن نستبدل قطعة النقود مثلا بقطعة من الحلوى أو أن نستبدل اللفظة بفكرة، وثانيا مقارنتها بشيء مشابه لها كأن نستبدل الريال بالدرهم أو الدينار أو أن نستبدل الكلمة بكلمة أخرى. أي أن قيمة الإشارة ليست مرهونة فقط

رفع المسهم

بدلالتها بل كذلك بتقابلها مع الإشارات الأخرى في اللغة. قيمة الإشارة اللغوية ليست ذاتية ولا شيئاً محدداً سلفاً وإنما هي تنبثق أساساً من النسق الذي تشكل جزءاً منه وتستمد منه وجودها. وإذا قلنا إنها تحمل مفاهيم بعينها فإننا لا نقصد بذلك أن المفاهيم تتحدد إيجاباً من خلال مضامينها العينية بل تتحدد سلباً من خلال تقابلها وتفاضلها مع عناصر النسق الأخرى. إن أهم وأدق ما يميزها أنها مغايرة لبقية عناصر النسق ومختلفة عنها. وعلى هذا الأساس فإن مفهوم القيمة اللغوية يجعل من غير الممكن النظر إلى الإشارة اللغوية فقط كمجرد اتحاد بين مفهوم ولفظ يدل عليه وعزلها عن النسق الذي تنتمي إليه لأن ذلك يفترض أنه بإمكاننا أن نكتشف النسق في أي لغة عن طريق حشد عناصرها واحداً تلو الآخر ثم ضمها إلى بعضها البعض. لكن الطريقة الصحيحة هي على العكس من ذلك تماماً، إذ لا بد من البدء بالكل المتكامل المترابط وعن طريق تحليل هذا الكل نتوصل إلى الأجزاء المكونة له.

وليس أي فرق بين عنصر لغوي وآخر هو فرق تمايزي. الفروق التمايزية هي التي ينتج عنها تباين في القيمة value بين عناصر النسق الواحد وتكون نابعة من معطيات النسق نفسه. ولكل نسق فروقه التمايزية التي قد لا توجد في غيره من الأنساق ولو وجدت قد لا تؤدي نفس الوظيفة ولا تكون لها نفس القيمة. تتفق اللغتان العربية والإنجليزية مثلاً في تمييزهما بين الصوتين س/ز لكن العربية فقط هي التي توظف سمة الإطباق لتميز بها بين الصوتين س/ص. والفروق المعنوية التي بين الكلمات العربية جمل/ناقة/بعير/جزور لا توجد في الإنجليزية التي تجمع كل هذه المعاني

في كلمة واحدة فقط هي camel. الفروقات التمايزية في النسق الواحد هي التي تحدد قيمة كل عنصر فيه وتحدد علاقة العناصر بعضها مع بعض. صيغة الجمع مثلاً لا تحمل نفس القيمة في العربية والفرنسية لأنه لا يقابلها في الفرنسية إلا المفرد بينما يقابلها في العربية المفرد والمثنى. الضمير الإنجليزي you لا يمكن أن يقابل في قيمته أياً من الضمائر العربية التي يمكن ترجمتها إليه مثل أنتَ، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتن.

ولتوضيح مفهوم القيمة يضرب سوسير مثلاً على ذلك بلعبة الشطرنج. إن قطعة الشطرنج بوجودها المادي تفتقد قيمتها خارج المربعات الموجودة على رقعة الشطرنج وبمعزل عن القطع الأخرى. قيمة القطعة لا تتحدد من شكلها ولا المادة التي صنعت منها. قد تكون مصنوعة من العاج أو الخشب أو الرخام أو البلاستيك أو الذهب الخالص ومع ذلك تبقى قيمتها مرتبطة بعلاقتها مع القطع الأخرى وموقعها على مربعات رقعة الشطرنج. المهم هو أن تتخذ القطع أشكالاً مختلفة يسهل معها التمييز بين الملك والملكة والفيل والفرس والقلعة والحجر. ولو حدث أن ضاعت إحدى هذه القطع أو انكسرت يمكننا الاستعاضة عنها بأي شيء آخر، كقطعة نقود مثلاً أو مفتاح، ما دمنا متفقين أن هذا الشيء البديل يحل محل القطعة المفقودة ويؤدي نفس الدور ويتحرك بنفس الكيفية. أي نعطيه قيمة القطعة المفقودة تماماً. التغيير في أشكال القطع أو مادتها لا يؤثر شيئاً في لعبة الشطرنج. لكننا لو غيرنا عدد المربعات على رقعة الشطرنج أو عدد القطع أو الكيفية التي تتحرك بها فإننا نكون بذلك غيرنا نظام اللعبة، النسق، وبالتالي قيمة كل عنصر من عناصر النسق (Saussure 1966: 22-23, 88,110). وحدات لعبة

رفع المسيهما

الشطرنج ليس لها قيمة أو هوية مادية، بمعنى أنه ليس هناك خصائص مادية يلزم توفرها في أي قطعة حتى يمكن اعتبارها ملكاً أو ملكة أو قلعة. قيمة أي وحدة في لعبة الشطرنج هي محصلة الفروقات التمايزية التي تحدد هويتها داخل نسق اللعبة وتجعل منها شيئاً مختلفاً عن غيرها ولا شيء غير ذلك. وعلى هذا المثال يمكننا أن نقيس قيمة الوحدات في اللغة.

خلاصة القول أن المعنى الكلي لأي عنصر لغوي يتألف من شقين: أحدهما دلالته حينما نستخدمه في سياق معين كلفظ يشير إلى شيء محدد والآخر قيمته في النسق اللغوي كما تحددها علاقات التقابل والتضاد التي تقوم بينه وبين بقية العناصر في النسق والآخر. فكلمة "أنا" في الجملة "أنا جالس" تختلف دلالتها تبعاً لاختلاف شخص المتكلم الذي تدل عليه. أما من حيث القيمة اللغوية فإن قيمة هذا الضمير ثابتة أياً كان المتكلم. ذلك لأن قيمة العنصر اللغوي لا تحددها الدلالة بقدر ما تحددها مكانة العنصر في النسق اللغوي، مثل مكانة ضمير المتكلم بين بقية الضمائر. مثال آخر: دلالة الكلمة "غداً" في جملة مثل "سأزورك غداً"؛ تختلف من يوم لآخر وفقاً لتعاقب الأيام لأن "غداً" سيصبح اليوم بعد أربع وعشرين ساعة وأمس بعد ثمان وأربعين ساعة، وهكذا. إلا أن هذا لا يغير شيئاً من قيمة الكلمة التي تستمدها من الفرق بينها وبين كلمات أخرى مثل "أمس" و "اليوم" وهلم جراً.

ونحن عادة حينما نتحدث عن الفروق يرد إلى أذهاننا أن هناك أشياء عينية تتم المقارنة بينها. إلا أن النقطة الجوهرية التي يحاول أن يؤكد عليها سوسير هي أن الإشارات اللغوية ليست أشياء بهذا المعنى وليست عناصر

إيجابية. فكما أنه يتعذر قول أي شيء عن ما ينبغي أن تكون عليه وحدة اللعب في الشطرنج شكلاً ومادة عدا أنها شيء مختلف عن باقي وحدات اللعبة، كذلك الدال "شجرة" مثلاً لا نستطيع تعريفه أو تحديده من مادة الصوت التي تحدث نتيجة التلفظ بهذه الكلمة. يقول سوسير إنه لا يوجد في اللغة سوى الفروقات التمايزية التي بها تتحدد قيمة الوحدات وهوية كل منها، أو كما يقول زكريا إبراهيم:

وصف عناصر اللغة لا يمكن أن يتم إلا بالنظر إلى علاقة كل عنصر بما عداه من العناصر الأخرى، نظراً لأن أحداً من هذه العناصر لا يملك أية قيمة ذاتية (باطنية) اللهم إلا بتقابله مع باقي العناصر الأخرى. ومعنى هذا أنه لا سبيل إلى اعتبار اللغة مركباً مختلطاً يتألف من مجموعة من الوحدات المادية، بل إن اللغة نسق أو نظام من "القيم" التي يتقابل بعضها مع البعض الآخر (إبراهيم ١٩٦٧: ٥٢)

الإشارات اللغوية ليست عناصر مستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض بل هي مرتبطة بشبكة من العلاقات المتبادلة والتي من خلالها تتحدد قيمة كل منها. أي أنه ليس لأي منها وجود مستقل، بل إن كل واحد منها يستمد هويته وقيمته من تقابله وتضاده مع العناصر الأخرى ومن مكانته في نسق العلاقات القائمة بين هذه العناصر جميعاً. ويقدم سوسير صياغة أكثر تحديداً لهذا المبدأ البنيوي العام قائلاً إن هناك نوعين من العلاقات البنيوية هما علاقة التوالي syntagmatic relations وعلاقة التداعي associative/paradigmatic relations (Saussure 1966: 122-127). علاقة التوالي هي علاقة تجاور وتعاقب أفقي تتحدد بها إمكانية تعنقد عناصر اللغة

والتوليف بينها وترتيبها في سلسلة كلامية. وتشكل علاقة التوالي السياق الذي يؤطر العنصر اللغوي وذلك مثل العلاقة القائمة بين الأصوات الموجودة في كلمة "عابر" أو علاقة الفعل بالفاعل في جملة "جاء المعلم". وعلاقات التوالي هي التي تحدد إمكانية أو عدم إمكانية النظم بين العناصر اللغوية على مختلف المستويات. مثلاً في اللغة العربية لا يسمح نظم الجملة أن يأتي الفعل مباشرة بعد فعل آخر أو بعد حرف جر. وفي اللغة الإنجليزية لا يسمح للصوت الصامت p أن يلتقي في نفس المقطع syllable مع صامت آخر قبله عدا s (مثل speak) أو بعده عدا l (مثل please) أو r (مثل praise). أما علاقة التداعي فهي علاقة رأسية/عمودية تقوم على التقابل بين عنصر لغوي وعناصر أخرى يمكن أن يستبدل بها وتحل محله في نفس السياق كأن نستبدل الصوت الأول من كلمة "عابر" لتصبح "غابر"، "قابر"، "كابر"، "صابر"، الخ. أو أن نستبدل كلمة "المعلم" في جملة "جاء المعلم" بكلمة أخرى كأن نقول "جاء الأستاذ". والواقع أن علاقات التداعي لا تتوقف عند حدود إمكانية الإحلال أو استبدال عنصر لغوي بآخر بل إنها أشمل من ذلك ويمكن اعتبارها علاقة استدعاء ذهني أو توارد خواطر. ضمن هذا المعنى الشمولي يمكن أن تقوم علاقة ارتباط بين العنصر اللغوي وأي عنصر آخر يرد إلى الذهن بحكم ما بين هذين العنصرين من علاقة لفظية أو معنوية أو وظيفية. كلمة "معلم" مثلاً يمكن أن تستدعي إلى الذهن كل الكلمات التي على وزنها أو تلك المشتقة من نفس الجذر أو تلك المشابهة لها في المعنى مثل "أستاذ"، "تلميذ"، "مدرسة" وهكذا.

ويسمي سوسير علاقات التوالي علاقات الحضور relations in praesentia

لأنها تقوم بين عناصر حاضرة جميعها في نفس اللفظ في آن واحد ويسمي علاقات التداعي علاقات الغياب relations in absentia لأنها تقوم مع عناصر غائبة من اللفظ. ويمثل سوسير لهذين النمطين من العلاقات بمثال من العمارة. لو نظرنا إلى عمود في بناية فإن هذا العمود له علاقة توالي مع العناصر الأخرى الحاضرة معه في نفس البناية مثل بقية الأعمدة والأقواس والحيطان والأسقف. وفي الوقت ذاته تقوم علاقة تداعي بين هذا العمود وأنماط أخرى من الأعمدة التي لا توجد في البناية والتي يمكن أن تحل محله مثل الأعمدة الأغريقية والأعمدة الرومانية والأعمدة الأندلسية، وهكذا.

علاقات التوالي وعلاقات التداعي قائمة وتؤدي وظائفها وبنفس الطريقة على جميع مستويات البناء اللغوي، من المستوى الفونولوجي إلى المستوى المورفولوجي إلى مستوى تركيب العبارات والجمل. لنعود إلى كلمة "عابر" التي وردت في مثال سابق. على المستوى الفونولوجي تقوم بين أصوات هذا الكلمة علاقات توالي لتجاورها وحضورها مجتمعة في آن واحد في هذه الكلمة. كما أن كل صوت من هذه الأصوات له علاقات تداعي مع أصوات أخرى يمكن أن تحل محله كما رأينا في المثال أعلاه. أما على المستوى المورفولوجي فهناك مقاطع يمكن إضافتها إلى هذه الكلمة لتغير معناها من مذكر إلى مؤنث "عابرة" أو من مفرد إلى مثنى "عابران"، "عابرتان" أو إلى جمع "عابرون"، "عابرات" وهلم جراً. وحينما نضيف أياً من هذه اللواحق إلى الكلمة الأصلية فإننا نقيم بينهما علاقة توالي بينما توجد علاقات تداعي بين هذه اللواحق لأن كل واحد منها يمكن أن يحل محل الآخر. لكن

لاحظ مثلاً أنه لا توجد علاقات تداعي بين هذه اللواحق وبين السوابق التي يمكن أن تضاف إلى الكلمة مثل لام التعريف لعدم إمكانية الاستبدال وعدم وجود أي نوع من التشابه اللفظي أو المعنوي أو الوظيفي. وإذا ما أضفنا إلى كلمة "العابر" صفة من الصفات مثل "الملثم"، "الأسمر"، "السريع" الخ. فإننا بذلك نقيم علاقة توالي بين الاسم والصفة من جهة وعلاقة تداعي بين الصفات المختلفة التي يمكن أن تأتي بعد الاسم أو الأسماء المختلفة التي يمكن أن تأتي قبل الصفة. ولو أضفنا إلى عبارة "العابر الملثم" فعلاً لنحولها إلى جملة تامة مثل "جاء العابر الملثم" فإنه بذلك تقوم بين العناصر الحاضرة في هذه الجملة، على أي مستوى نظرنا إليها (المستوى الصوتي أو الاشتقاقي أو النحوي)، علاقات توالي كما تقوم علاقات تداعي بين أي عنصر من عناصر هذه الجملة والعناصر التي يمكن إحلالها بدلاً منه. وهكذا نرى أن البناء اللغوي يتشكل من محاور متراصفة ومتواشجة. وتوجد على كل محور من هذه المحاور عناصر لها خاصية التوالي والتداعي بعضها مع بعض لتتشكل منها بذلك عناصر المحور الأعلى في المعمار اللغوي. الأصوات تتألف بعضها مع بعض عن طريق علاقات التوالي والتداعي لتتكون منها المقاطع وبالطريقة ذاتها تتكون الكلمات من المقاطع ومن الكلمات تتكون العبارات التي تتكون منها الجمل. وهكذا تقوم علاقات التوالي والتداعي بين العناصر اللغوية بالطريقة نفسها على مختلف محاور البناء في النسق اللغوي مما يحقق الاعتماد المتبادل بين هذه المحاور.

اللغة والفكر

لا يمكننا تعريف الكلمة بالصوت الملفوظ وإنما هي قبل ذلك وحدة

دلالية، وهذا هو المهم. وحيث إن الصوت مجرد أداة لبيان ما في الذهن فإن اللغويين لا يهمهم دراسة أي صوت وإنما فقط تلك الأصوات المحملة بالمعاني (Holdcroft 1991: 22). لا يعد الصوت كياناً لغوياً إلا إذا عبر عن معنى، لا بد أن يكون دالاً لمدلول. إن لم يعبر الصوت عن فكرة تحول من كيان لغوي إلى مجرد حدث فسيولوجي أو فيزيائي. لو لم تعبر الألفاظ عن أفكار لتحولت من كلمات محددة ومتمايزة إلى ضوضاء وأصوات متداخلة يصعب الفصل فيما بينها. كذلك الأفكار بدون اللغة لا تعدو أن تكون كتلة سديمية مبهمة غير واضحة المعالم. بدون الكلمات يستحيل تحديد الأفكار والتمييز فيما بينها، إذ لا وجود للفكرة بدون لفظ يعبر عنها (Saussure 1966: 111-113).

لكن الألفاظ ليست قوالب جاهزة تصب فيها الأفكار وإنما هي مادة طيعة يمكن تجزئتها إلى كيانات متمايزة تستمد منها الأفكار ما تحتاج إليه من دوال. غير أنه لا يمكن التعرف على الكيان اللغوي وتحديده بدقة إلا إذا عزل عما يحيط به في السلسلة اللفظية ليمكن مقابلته بغيره من الكيانات اللغوية الأخرى في نفس النسق اللغوي. من أهم خصائص الدفق الصوتي أنه أحادي البعد والاتجاه، فهو يسير في خط زمني مستقيم. إنه أشبه بالخيط أو الشريط الذي لا تستطيع الأذن أن تحس فيه بأي تقسيمات واضحة ولا تستطيع أن تمفصله. لعمل ذلك يلزمنا اللجوء إلى المعنى. حينما نستمع إلى لغة لا نفهمها يصعب علينا مفصلة الدفق الصوتي بمجرد سماع الأصوات الصادرة عن من يتكلم تلك اللغة. ولكن حالما نتعرف على المعاني والوظائف التي تختص بها مكونات السلسلة الصوتية تبدأ هذه المكونات

رفع المسك

تتمفصل وتأخذ شكل الكلمات المتتابعة. تحديد الإشارة اللغوية والتعرف عليها يتطلب منا عزلها عن ما يسبقها وما يتلوها من إشارات عن طريق مفصلة الدفق الصوتي بواسطة اللجوء إلى المعنى (Saussure 1966: 103-104).

لو نظرنا إلى الأصوات التي يتلفظ بها المتكلم كحدث طبيعي فإن المختصين في فيزياء الصوت لن يجدوا عناء في وصفها كظواهر طبيعية حتى ولو كانوا لا يعرفون لغة المتحدث. لكن لو أرادوا أن يحللوها ويصفوها كألفاظ وكلمات تحمل معاني، أي كمادة لغوية وليس كمادة فيزيائية، فإنه لا بد لهم من معرفة اللغة التي تنتمي لها هذه الأصوات. فعبارة "لبستقميصعلي" مثلاً تمثل لمن لا يعرف العربية سلسلة متصلة من الأصوات المتتابعة دون القدرة على تقسيم هذه السلسلة إلى كلمات محددة. أما من يتحدث العربية فإنه سوف يسمعها على أنها جملة مؤلفة من ثلاث كلمات هي "لبست قميص علي". معرفة السامع بالعربية تمكنه من تقسيم هذه السلسلة الصوتية إلى كلمات تحمل دلالات ومعاني (Holdcroft 1991: 21).

الأفكار والكلمات ضروريتان لبعضهما البعض إذ إن كل وحدٍ يحدد الآخر ويميزه. فالفكرة لا يمكن التعرف عليها ما لم نطلق عليها كلمة تحددها وتفصلها عن كتلة الأفكار الأخرى. والكلمة بدورها لا يمكن تمييزها في الدفق الصوتي وفصلها عن الأصوات المجاورة لها في سلسلة اللفظ ما لم تعبر عن فكرة معينة (Saussure 1966: 111-113). الفكر ليس نشاطاً عقلياً مستقلاً قائماً بذاته إذ ليس له وجود بدون اللغة. والكلام بدوره ليس مجرد تجسيد للأفكار. هناك علاقة اعتماد متبادل بين التفكير والكلام ولا يمكن

أن يوجد أحدهما أو تتحدد هويته بدون الآخر، وكلاهما يتحقق وجوده بواسطة اللغة (Harris 1988: 29). ويمكن تصوير الحقيقة اللغوية في مجملها على أنها سلسلة من التقسيمات المتتالية والمفصلة على مستويين: A) مستوى الأفكار المختلطة غير المحددة، B) مستوى الأصوات التي لا تقل عن الأفكار في الاختلاط وعدم التحديد (عزيز ١٩٨٨: ١٣١-١٣٨).

يقول سوسير إن الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس إيجاد المادة الصوتية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر والصوت الكلامي بحيث يؤدي ذلك إلى التجزئة المتبادلة لوحدات الفكر والصوت معا. فالفكر الذي هو بطبيعته غامض غير منتظم، يتحدد ويتخذ نظامًا معيناً أثناء عملية تحلله. لا تتخذ الأفكار شكلاً مادياً كما أن الأصوات لا تتحول إلى كيانات ذهنية.

يقول سوسير إن الحقيقة المذهلة حقاً هي أن "الفكر- الصوت" يقتضي التجزئة وأن اللغة تصوغ وحداتها خلال تشكلها بين كتلتين لا شكل لهما أساساً (Saussure 1966:112). تخيل الهواء عند ملامسته صفحة الماء: إذا تغير الضغط الجوي تجزأ سطح الماء إلى سلسلة من الأقسام أو الأمواج، وهذه الأمواج تشبه الربط أو القرن بين الفكرة ومادة الصوت. التموجات التي يراها المشاهد على السطح تشكلت بسبب الاختلافات الموضعية في قوة الضغط بين كتلة الماء وكتلة الهواء. ويقصد سوسير من هذا المثال أن يوضح مسألتين: المسألة الأولى هي أن اللغة لا تشكل طبقة ثالثة خفية تتوسط بين الفكرة واللفظ حيث لا يوجد طبقة ثالثة بين الماء والهواء ومع ذلك فإن الوسط الذي بينهما يتمفصل ويتشكل. المسألة الثانية أن هذا

التشكل الذي يأخذه الوسط هو ذات التشكل الذي تأخذه معا كتلتي الماء والهواء المتلامستان، والتغضنات التي تحدث على سطح الماء وتلك التي تحدث على سطح الهواء متطابقتان تماما. أما كوننا نرى هذه التغضنات تأخذ شكل الأمواج على سطح الماء بينما لا نراها على الهواء فهذا يعود إلى كوننا نستطيع رؤية الماء بينما لا نستطيع رؤية الهواء، تماما مثلما أننا قادرين على سماع الكلمة والاحساس بها كصوت بينما لا يمكننا ذلك بالنسبة لمعناها. إلا أنه مع ذلك لا وجود للمعنى بدون الصوت ولا للصوت بدون المعنى (Harris 1988: 30).

اللغة والكلام

يؤكد سوسير على عدم الخلط بين قدرة الإنسان العضلية على الكلام من خلال أعضاء النطق وبين الملكة الذهنية التي يمتلكها لتشييد نسق لغوي، أي تنظيم الإشارات المتمايزة التي تقابلها مفاهيم متمايزة، ويعد دراسة الوسائل التي تجعل النطق بالألفاظ أمراً ممكناً أمراً ثانوياً بالنسبة لدراسة النسق اللغوي. فهو يرى أن الخاصية الإنسانية التي يتفرد بها البشر ويتميزون بها عن بقية الكائنات، والتي ينبغي أن ينصب اهتمام الدراسات اللغوية عليها، ليست الكلام المنطوق في حد ذاته والقدرة على التلفظ بالصوت الكلامي وإنما ما يقف وراء ذلك من ملكة يتمتع بها البشر لاستخدام الرموز مما يمكن الإنسان من تشييد نسق لغوي (Saussure 1966: 10-11). إضافة إلى قدرة الإنسان الفسيولوجية/العضلية على الكلام من خلال أعضاء النطق فإن هناك ما هو أهم وأعم وهو قدرته على استخدام الرموز والإشارات، أو ما نسميه الملكة اللغوية. لكن تحقيق الملكة اللغوية

يستلزم وجود المجتمع الذي يتعارف أبناؤه على مجموعة من القواعد التي تمكنهم من ممارسة هذه الملكة ويعطون لوحدات اللغة القيم اللازمة والتي تستمد وجودها أصلاً من الاصطلاح والاتفاق بين أفراد الجسم الاجتماعي الذين يتراضون عليها ويقبلون بها. اللغة نتاج اجتماعي لملكة الإنسان اللغوية. اعتباطية اللغة تجعل من النسق اللغوي حقيقة اجتماعية يصعب تصور وجودها دون وجود المجتمع (Saussure 1966: 113). كل وسيلة من وسائل التعبير التي يستخدمها أفراد المجتمع تقوم في أساسها على السلوك الجمعي والتعاقد الضمني، أو قل التقليد أو العرف، إذ لا بد لها أن تخضع لقواعد يتبناها أفراد المجتمع. لذا نقول بأن الإشارة اللغوية تستمد معناها من هذه القواعد المتعارف عليها وليس من ذاتها أو مادتها أو أي قيمة كامنة فيها (Saussure 1966: 68).

اللغة حقيقة اجتماعية ونسق من القيم والأعراف المكتسبة التي يتوارثها أبناء المجتمع جيلاً بعد جيل، لكن ليس لها تحقق فعلي مادي لأن الناس لا يتكلمون هذه القواعد والأعراف وإنما يتكلمون وفقاً لها. ويمكن تشبيه اللغة بالسمفونية والكلام بعزف السمفونية على الآلات الموسيقية. لذا يقول إن الكلام هو الجانب الفردي التنفيذي لهذه الحقيقة الاجتماعية المجردة. الكلام هو الألفاظ التي تصدر عن الأفراد أثناء تحدثهم، لذلك فهو نشاط فعلي وحدث مادي، أما اللغة فهي القواعد الكامنة المختزنة في الذهن التي يذعنون لها وتحكم كلامهم. واللغة نظام اجتماعي مستقل عن الفرد، لذا فهي لا توجد مكتملة بقواعدها ومفرداتها عند أي فرد واحد في المجتمع، إنها محصلة المعرفة اللغوية التي يمتلكها أفراد المجتمع بكاملهم. اللغة هي

الشكل والكلام هو المادة وهناك علاقة جدلية بينهما. اللغة نسق مستخلص من محصلة الممارسات الكلامية لأفراد المجتمع، لكن قدرة أي من هؤلاء الأفراد على ممارسة الكلام تفترض مسبقاً وجود النسق اللغوي. اللغة كنظام حقيقة غير ملموسة ولا تظهر لنا مكتملة في أي لحظة ولا نستطيع أن ندرك وجودها إلا مجزأة من خلال التحقيقات العينية الفردية للأداء الكلامي.

ويتحقق كلام الأفراد بصورة إبداعية مبتكرة من الجمل والعبارات والألفاظ غير المتجانسة والتي لا حصر لها ولا سبيل إلى دراستها، على خلاف اللغة التي يمكن حصر مفرداتها وقواعدها. صحيح أن الفرد ليس له الحرية في ابتداع مفردات اللغة وقواعدها لكن له مطلق الحرية في أن يقول ما يريد وبصورة لم يسبقه إليها أحد. الفرد يستطيع الكلام لكنه لا يقدر أن يوجد اللغة ولا أن يعدل فيها لأن اللغة توجد خارج الفرد. ويوضح سوسير الفرق بين اللغة والكلام بالقول بأننا نستطيع دراسة مفردات وقواعد اللغات المنقرضة حتى وإن لم نعرف كيفية النطق بها.

الفصل بين اللغة والكلام هو في الواقع فصل بين ما هو جوهري وشكلاني وجمعي وبين ما هو عارض مادي فردي. وتتلخص الظاهرة اللغوية في نظر سوسير بأنها مجموعة من الثنائيات المتلازمة التي تتضافر بعضها مع بعض لتشكل مجتمعة ماهية اللغة، وأي عنصر من عناصر أي من هذه الثنائيات لا تتحقق قيمته إلا من خلال وجود العنصر الآخر وتقابله معه (Saussure 1966: 8). وهذه الثنائيات هي:

١/ ثنائية النطق والسمع، أو المتحدث والسامع. فالصوت حدث ناتج عن

تحريك عضلات النطق وهو في الوقت نفسه انطباع سمعي تلتقطه الأذن.

٢/ ثنائية اللفظ والمعنى، أو الدال والمدلول.

٣/ ثنائية الفرد والجماعة فاللغة تتحقق حينما يتحدث الفرد إلى الآخرين لكن الجماعة هي التي تتواضع على الأعراف والقواعد اللغوية التي تمكن الفرد من التحدث إلى الآخرين والتفاهم معهم.

٤/ ثنائية التزامنية والتاريخية، بمعنى أن اللغة في أي لحظة من اللحظات نظام قائم متماسك من الإشارات التي تربطها بعضها مع بعض علاقات متبادلة وهي في الوقت نفسه نتيجة تطور تاريخي وتسير في عملية تغير مستمر.

رفع
المسيح هميل
غفر الله له ولوالديه

المراجع

جفري سامسون

١٤١٧ **مدارس اللسانيات: السباق والتطور**. (ترجمة د. محمد زياد كبة). جامعة الملك سعود، الرياض.

حسن ظاظا

١٩٧٦ **كلام العرب**. من قضايا اللغة العربية. دار النهضة العربية. بيروت.

حمزة بن قبلان المزيني

١٩٩٠ "ثلاث ترجمات لمحاضرات دي سوسير". **مراجعات لسانية**. النادي الأدبي. الرياض.

رمضان عبدالتواب

١٩٨١ **التطور اللغوي**. دار الرفاعي. الرياض.

زكريا إبراهيم

١٩٦٧ **مشكلة البنية**. مكتبة مصر.

عباس محمود العقاد

د. ت. **أشتات مجتمعات في اللغة والأدب**. ط٢. دار المعارف بمصر.

فردينان دي سوسير

١٩٨٤ **محاضرات في الألسنية العامة**. (ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر). دار نعمان للثقافة. جونية، لبنان.

١٩٨٥ **دروس في الألسنية العامة**. (ترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة). الدار العربية للكتاب. تونس وطرابلس، ليبيا.

١٩٨٥ **فصول في علم اللغة العام**. (ترجمة أحمد نعيم الكراعين). دار المعرفة الجامعية. الأسكندرية.

١٩٨٨ **علم اللغة العام**. (ترجمة يوئيل يوسف عزيز). بيت الموصل. الموصل.

فؤاد زكريا

١٩٨٠ **الجذور الفلسفية للبنائية**. حوليات كلية الآداب، الحولية الأولى. جامعة الكويت.

محمد حسن عبد العزيز

١٩٨٩ **سوسير، رائد علم اللغة الحديث**. دار الفكر العربي. القاهرة.

محمد المبارك

١٩٧٠ **فقه اللغة وخصائص العربية**. ط٤ . دار الفكر. بيروت.

ميشال زكريا

١٩٨٥ **الألسنية: علم اللغة الحديث، قراءات تمهيدية**. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

Culler, Jonathan

1975 *Structuralist Poetics.* Cornell University Press. Ithaca, New York.

1976 *Saussure.* Fontana Press.

Dinneen, Francis P.

1967 *An Introduction to General Lingusistics.* Holt, Rinehart and Winston, Inc.

Guirand, Pierre

1975 *Semiology* (trans. George Gross). Routledge & Kegan Paul. London.

Harris, Roy

1968 *Introduction to Theoritical Linguistics.* Cambridge University Press.

1987 *Reading Saussure.* Duckworth. London.

1988 *Language, Saussure and Wittgenstein.* Routledge. London.

Holdcroft, David

1991 *Saussure: Signs, System, and Arbitrariness.* Cambridge University Press.

Lyons, John

1968 *Introduction to Theoritical Linguistics.* Cambridge University Press.

Noth, Winfried

1990 *Handbook of Semiotics.* Indiana University Press.

Petit, Philip

1975 *The Concept of Structuralism*: A Critical Analysis. U. Of California Press.

Saussure, Ferdinand de

1966 *Course in General Linguisties*(trans. Wade Baskin).

McGraw-Hill Book Co.

Spradley, James P.

1972 *Culture and Cognition.* Chandler Publishing Company. San Francisco.

Tylor, Stephen A.

1969 *Cognitive Anthropology.* Holt, Rinehart and Winston, Inc. New York.

Wells, Rulon S.

1947 *De Saussure's System of Linguisties.* Word Vol .3, No .1-2: 1-30.